سلطة الرئيس في المدينة الفاضلة في فلسفة الفارابي

د. خالد عبد الوهاب

مقدمة

لاحظ الفارابي أن مدينة البشر قد أصبحت في عصره أبعد ما تكون عن مدينة الله، وأن تنظيم المدينة حاد عن نظام الكون، وأنه لم يعد بين أجزاء الأمة «ائتلاف وارتباط وانتظام وتعاضد» مثلما هو عليه الحال بين أجزاء العالم. لذا اعتقد ضرورة قيام رئاسة فاضلة تعتمد الطرق البرهانية لتعيد الوصل بين الدين والدنيا، ولتقرب الإنسان من ربه وتجعل منه خليفته على الأرض، وقد رأينا أن صلة الوصل هاته تتم في نظر الفيلسوف المسلم عن طريق النبي الفيلسوف الذي يستطيع أن يدرك ناموس المدينة الكبرى فينزله إلى الصغرى.

إيجاد صلة وصل بين الدين والدنيا، هو ما بدا لنا الإشكالية الأساسية التي تدور حولها الفلسفة «السياسة» عند الفارابي. ونحن نعتقد أن هذه هي ذات إشكالية التي تستقطب الفكر «السياسي» في الإسلام بكامله. فقد ظل هذا الفكر يمزج بين الدين والمجتمع ويقحم الزمنية الدنيوية داخل زمنية أوسع، فينظر إلى البشر على أنهم مفوضون من الله وخلفاؤه على الأرض.

لقد نشأت هذه الإشكالية الأساسية التي تدور حولها فلسفة الفارابي، بشكل جنيني، مع الخلافات السياسية الأولى التي عرفتها «الأمة الإسلامية». وعندما وضعت المشكلة السياسية على الصعيد النظري، دارت أساسا حول مسألة الخلافة على اعتبار أن رئيس المدينة الإسلامية ينبغي أن يكن خليفة لمن كان خليفة الله على الأرض، وعلى اعتبار أن النظام الوحيد الذي يقبله الشرع هو نظام «الخلافة». وقد بدأ الجدل حول هذه المسألة على صورة جدال كلامي، لإثبات مدى شرعية الخلفاء الأول. ولكن، سرعان ما تحول هذا

الجدل إلى تشريع، فاتخذ صورة فقهية ترمي إلى استخلاص الأسس التي يقوم عليها الحكم في الإسلام والشروط التي يجب أن تتوفر فيمن سيكون خليفة الله على الأرض.

وقد كان من نتائج اكتشاف التراث اليوناني أن تحولت اللغة التي تطرح بها هذه المسألة، وتبدلت المفاهيم التي تصاغ عن طريقها، إلا أن الإشكالية ظلت هي هي. ولم تستطع التحولات التي أخذ المجتمع الإسلامي يعرفها منذ نهاية القرن الثالث الهجري، أن تتبلور على المستوى الفكري، وتفرض رؤية مغايرة تنظر إلى الاجتماع الإنساني، لا على أنه عملية استخلاف وعمارة، وإنما على أنه حياة مدنية لا «تمثل» أي معنى يتجاوزها كحياة سياسية. صحيح أن الحياة العملية خلال هذا العصر قد بدأت تعرف بوادر هذا الانفصال، وقد تجلى ذلك بالفعل في تصدع الخلافة وانفصال السلط الدنيوية عنه، كما ظهر في هجوم العامة على ما كان يشكل حضور الدين في مدينة الدنيا، إلا أن الاختناق الفكري الذي كانت تعرفه هذه المدينة لم يمكن الفكر من أن يبلور هذا الانفصال.

١- موقع السياسة في فلسفة الفارابي:

إن الغرض من هذا العرض المتواضع أن نبين الصبغة السياسية التي تطبع المشروع الفلسفي عند الفارابي وعلى المكانة المحورية التي تحتلها الفلسفة المدنية في مصنفاته، ولذا فالاهتمام بالفكر السياسي عند الفارابي معناه إعادة قراءة هذا الفكر والإطلال عليه من زاويته السياسية. وتلك محاولة للابتعاد عن الآراء التي تعتبر الفلسفة المدنية عنده نتيجة لميتافيزيقاه، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ جميل صليبا حين اعتبر أن القسم الأعظم من كتاب المدينة الفاضلة مخصص للبحث في الإلهيات لا في السياسيات لأن رأي الفارابي في المدينة الفاضلة ناتج من نظرياته الفلسفية في العقول السماوية، وصدور الموجودات عن الخالق، وعلاقة الأكوان بعضها ببعض[1].

وهذا ما دفع أغلب المهتمين بالفلسفة المدنية عند الفارابي أن يذهبوا هذا المذهب هو ملاحظتهم بان أهم كتبه السياسية تبدأ بمقدمة في الإلهيات تفوق طولا الجزء المخصص

(١) جميل صليبا – من أفلاطون إلى ابن سينا – دار الأندلس – ط٤ – ص:٦١.

للجانب السياسي. المعروف أن كتاب (الآراء) مثلا يخصص خمسا وعشرين فصلا للإلهيات، بينما لا يتجاوز هو كله سبعا وثلاثين فصلا. والمعروف أيضا أن كتاب (السياسة المدنية) يلقب بمبادئ الموجودات، ويحتوي قسمه الأعظم على مباحث ميتافيزيقية. أما كتاب (الملة)، فهو إن لم يبدأ بمقدمة في الإلهيات فربما يرجع ذلك فحسب إلى أنه لا يريد أن يبحث في العلم المدني على الخصوص، بقدر ما يهدف إلى البحث «في الأصول التي يبني عليها الفارابي تركيب (المدينة الفاضلة) و(السياسة المدنية) والمنهج الذي استخدمه في هذين الكتابين»[١].

فرغم الحجم الكبير الذي تحتله مسائل الإلهيات في كتب الفارابي السياسية، فإننا لا نشعر بأن المعلم الثاني يريد أن يطرق قضايا السياسة ضمن إطار الميتافيزيقا بقدر ما نعتقد عكس ذلك. ولا غرابة في هذا فإن الفلسفة السياسية التي ترى أن على حاكم المدينة أن يكون فيلسوفا لا بدّ وأن تمزج السياسة بالميتافيزيقا. فمؤلف كتاب (الآراء) ينحو هنا منحى مؤلف (الجمهورية) وهو يرمي إلى «غاية فلسفية قصوى في معالجة القضايا الإلهية ضمن نطاق العلم المدني كما فعل الفيلسوف أفلاطون قبله»[٢] فالمعروف أن السياسة عند مؤسس الأكاديمية «ينبغي لها أن تكون فنا يعتمد على المعرفة الصائبة»[٣] كما أن المدينة العادلة عنده هي التي تقوم على آراء صائبة. ونحن سنبين ذات الموقف عند الفيلسوف المسلم، فالمدينة عنده فاضلة بآرائها. إذ أن هناك قانونا كونيا يمكن معرفته واستخدامه كنموذج لحكم المجتمع البشري. ومعرفة هذا القانون واجتماع الناس حول هذه المعرفة هما ما يشكلان المجتمع الفاضل. بهذا المعنى فإن الآراء الميتافيزيقية «رغم أنها تقع ضمن الفروع النظرية من الفلسفة فلها علاقة مباشرة بحياة الإنسان المدنية وسعادته (...) فسعادة الإنسان القصوى وكماليته يتوقفان ليس فقط على أفعاله بل، وهو الأهم، على آرائه أيضا»[٤]. فليس غريبا إذا أن يدعو الفارابي كتابه الأساسي في السياسة (آراء أهل المدينة الفاضلة) وأن يلقب الكتاب الآخر بـ(مبادئ الموجودات). كما أنه ليس من قبيل الصدفة

(١) مهدي محسن -في مقدمته لكتاب الملة - دار دمشق المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٦٨- ص:١٣.
(٢) نجار (ف.م) - مقدمته لكتاب السياسة المدنية - ص:١٥.
(٣) سباين (ج) - تطور الفكر السياسي - ص: ٥١.
(٤) نجار (ف.م) - المرجع نفسه - ص:١٥-١٦.

أن يستهل (كتاب الملة) بالحديث عن الآراء التي في الملة وتصنيفها، وأن يبدأ كتاب (تحصيل السعادة) بإحصاء العلوم النظرية وتقسيمها.

فها هنا يندمج البحث في السياسيات مع البحث في الإلهيات ولا تعود السياسة جزءً من الفلسفة وفرعا من فروعها. ويظهر أن هذا لم يكن ليغيب عن ذهن المعلم الثاني. فهو يوضح لنا هذا الارتباط الوثيق بين (أجزاء) الفلسفة عندما يقول بأن «الفعل الذي هو الفعل الإنساني إنما يعلم إذا علم الغرض الذي لأجله رتّب الإنسان في العالم على أنه جزء منه وعلى أنه يكمل به جملة العالم (...) فإذا كان الإنسان جزءا من العالم، فإن أردنا أن نقف منه على الغرض وعلى فعله ومنفعته ورتبته، ومن اللازم أن نعرف أولا الغرض من كل العالم، ليتبين الغرض من الإنسان ويتبين لنا أن الإنسان يلزم أن يكون جزء في العالم ضروريا في أن يحصل بالغرض منه الغرض الأقصى من كل العالم. فلذلك يلزم -إن أردنا أن نعلم الشيء الذي له ينبغي أن نسعى- أن تعرف الغرض من الإنسان والكمال الإنساني الذي لأجله ينبغي أن نسعى ونضطر لأجل ذلك أن نعرف الغرض من جملة العالم. وليس يمكن أن نعرف ذلك دون أن نعرف أجزاء العالم كلها ومبادئها[١]. وعليه، فلا يمكن أن تقوم سياسة دون معرفة ميتافيزيقية، بل أن السياسة هي هاته الميتافيزيقا ذاتها «فالسياسة هنا كما هي لدى أفلاطون عملية ونظرية، هي مسألة معرفة، لا معرفة تجريبية محدودة لغرض خاص، ولكن معرفة شاملة معانقة للحقيقة كلها»[٢] ذلك أن «العمل إنما يكون فضيلة وصوابا متى كان الإنسان قد عرف الفضائل التي هي فضائل بالحقيقة حق معرفتها (...) وعرف مراتب الموجودات واستيهالاتها وأنزل كل شيء منها منزلته ووافاه حقه (...) وهذه حال لا تحصل ولا تكمل إلا بعد الحنكة وكمال المعرفة بالبرهان واستكمال العلوم. وهذا أجمع لا يكون إلا بممارسة النظر»[٣].

ليست السياسة إذن نتيجة لما تقوله الميتافيزيقا. وليست الإلهيات مقدمة للفلسفة

(١) الفارابي - فلسفة أرسطو طاليس - تحقيق محسن مهدي - دار مجلة شعر - بيروت - ١٩٦١ - ص:٦٨-٦٩.

(٢) إرنالديز (ر) - ما وراء الطبيعة والسياسة في تفكير الفارابي - مجلة المورد العراقية - المجلد ٤ - العدد ٣ - ١٩٧٤ - ص:٣٥.

(٣) الفارابي - فصول منتزعة - ص:٩٥-٩٦.

المدنية ولا أساسا لها. بل أن (السياسة المدنية) هي غاية (مبادئ الموجودات) ومشروع الفارابي الفلسفي سياسي في مرماه.

٣- مرتبة الرئيس في المدينة:

يعتبر الفارابي رئيس المدينة هو أكمل أجزائها فيما يخصه وله أفضل ما يشاركه فيه غيره من أعضاء المدينة، شأنه شأن العضو الرئيس في البدن وهو القلب، وهو أكمل الأعضاء وأتمها[١].

ورئيس المدينة في نظر الفارابي كما يقول: «هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها، والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها وفي أن تترتب مراتبها، وإن اختل منها جزء كان هو المرفد له بما يزيل عنه اختلاله»[٢].

يحاول الفارابي هنا أن يبين المراتب الوظيفية في المدينة مقارنة بالتدرج في مراتب أعضاء البدن بالنسبة لبعضها البعض فهو يريد بالعضو الرئيس هنا القلب ،والمعنى المقصود أن القلب في البدن يفوق بقية الأعضاء كمالا وتماما فهو أكملها في نفسه أي من جهة خلقه وتركيب أجزائه .وهو أكملها فيما يختص به من الوظائف والأعمال التي لا يشاركه فيها غيره من الأعضاء كدفع الدم إلى الجسم وتزويده به، فإنه يقوم بذلك كله، ويستأثر به دون بقية الأعضاء. فهو إذ يشارك غيره في بعض وظائفه وصفاته لا يشاركه إلا في أفضل هذه الوظائف والصفات، ويقع تحت رياسة القلب أعضاء أخرى أقل منه كمالا وشرفا. ولكنها أيضا درجات ومراتب، فأسماها مرتبة يكون مرؤوسا للقلب مباشرة ورئيسا لغيره. غير أن رياستها لما دونها تكون أنقص وأقل من رياسة العضو الأول (وهو القلب) لها، فتسند إليها أعمال هي في الأهمية أدنى مما أسند إلى القلب، ولكنها أكمل وأشرف مما أسند إلى الأعضاء الأخرى التي تخضع لرياستها، وكذلك شأن المدينة الفاضلة، ففيها رئيس له من الصفات والوظائف والأعمال بالنسبة إلى غيره ما يشبه صفات القلب ووظائفه وأعماله بالنسبة لبقية الأعضاء فهو أكمل أفراد المدينة في ذاته، وأكملهم فيما يستأثر به من صفات، وهو

---

(١) عبد الرحمن بدوي – موسوعة الفلسفة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ط١ – ١٩٨٥ – ج١ – ص:١١٤.

(٢) الفارابي – آراء أهل المدينة الفاضلة – تحقيق: ألبير نادر – دار المشرق – بيروت – ط٢- ١٩٦٨ – ص:١٢٠.

إذ يشارك غيره في بعض صفاته وأعماله لا يشاركه إلا في أفضل هذه الصفات والأعمال. وكما أن في البدن أعضاء تخضع مباشرة للقلب وتتلقى أوامرها منه بدون واسطة، كذلك في المدينة الفاضلة. فهناك أفراد يتصلون بالرئيس مباشرة ويتلقون منه الأوامر بدون واسطة، ويرأسون آخرين في المرتبة الثانية... وهكذا دواليك، ورياسة كل مرتبة لما دونها أنقص من رياسة المرتبة السابقة لها وصفات الطبقة وأعمالها أقل كمالا ورقيا من صفات الطبقة السابقة لها وأعمالها[١].

٤- النظام الكوني أساس نظام المدينة الفاضلة:

يستهل الفارابي بالحديث عن مصدر نظام المدينة الفاضلة والذي استلهمه من نظام الكون والذي يعكس نظرة الفيلسوف المسلم حيث يقول: «وتلك أيضا حال الموجودات، فإن السبب الأول نسبته إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها، فإن البريئة من المادة تقرب من الأول، ودونها الأجسام السماوية، ودون الأجسام السماوية، الأجسام الهيولانية. وكل هذه تحتذي حذو السبب الأول، وتأمله وتقتفيه... إلا أنها إنما تقتفي الغرض بمراتب: وذلك أن الأخص يقتضي غرض ماهو فوقه قليلا، وذلك يقتفي غرض ما هو فوقه، إلى أن تنتهي إلى ليس بينها وبين الأول واسطة أصلا، فعلى هذا الترتيب تكون الموجودات كلها تقتضي غرض السبب الأول.. وكذلك تبتغي أن تكون المدينة الفاضلة، فإن أجزاءها كلها ينبغي أن تحتذي بأفعالها حذو مقصد رئيسها الأول على الترتيب»[٢].

وهذا يعني أن الفارابي يريد أن ينقاد أعضاء المدينة الفاضلة كل إلى فوقه، إلى أن يتم الانقياد إلى الرئيس الأول وذلك كما ينقاد كل من الكائنات إلى ما فوقه من القوى، إلى أن يتم الانقياد إلى السبب الأول.

ويتضح جليا مما سبق ذكره عن نظام المدينة الفاضلة، الأهمية الخاصة التي يوليها لأهم أعضاء المدينة قاطبة وهو الرئيس؛ فقد أفرد فقرات مطولة ليبين لنا فيها مكانة هذا الرئيس بين أفراد المدينة.

---

(١) مصطفى النشار - تطور الفلسفة السياسية - الدار المصرية السعودية - القاهرة - ٢٠٠٥ - ص:١٧٣.
(٢) الفارابي - آراء أهل المدينة الفاضلة - ص:١٢٢.

ويبرر هذه المكانة الخاصة من خلال النظر في الجسم الإنساني وتشبيهه للرئيس في المدينة بالقلب من أعضاء البدن. وكذلك تشبيهه للرئيس في المدينة بالسبب الأول في النظام الأول ووضعه للتدرج في المراتب وبيانه لعلو مرتبة الرئيس عمن عداه من أفراد المدينة، وهذا كله يجعلنا نتساءل عن مؤهلات هذا الرئيس وفات ذلك الحاكم الذي يعطيه الفارابي كل هذه الأهمية؟ وهذا التساؤل ينقلنا إلى نظرية أخرى من نظريات الفارابي السياسية، وهي نظريته عن رئيس المدينة الفاضلة وصفاته. وهل يوجد بديل إذا لم يوجد مثل هذا الحاكم ليحكم المدينة الفاضلة؟[١]

الحاكم الفيلسوف في المدينة الفاضلة

تعتبر هذه الفكرة محور نظريات الفارابي السياسية رغم ادعاء الكثير من الباحثين أنها لا تختلف عما قدّمه أفلاطون في نظريته عن الحاكم الفيلسوف من خلال ما سيتضح لنا من نصوص الفارابي أنه إذا كانت نظرية الفارابي عن الحاكم لها مصدرين هما أفلاطون وحاكمه الفيلسوف، والإسلام بما قدمه من مفهوم للحاكم النبي أو الخليفة، إلا أن الفارابي قد جدد هذه النظريات مثبتا نوعا من المرونة السياسية والقدرة على فهم الواقع الذي أمامه وصياغة نظريات تتلاءم مع هذا الواقع على العكس من أفلاطون الذي كان في نظريته عن الحاكم الفيلسوف سابحا في خيال لم يفق منه إلا حينما حاول تطبيق ما آمن به فلم يجد إلا عزوفا من الحكام ورفضا من الشعب الذي طالب بإعدام أفلاطون لهدمه ما تعترفوا عليه من قيم ومبادئ .. وكل هذا يتضح من خلال النظر فيما قدّمه الفارابي في آراء المدينة الفاضلة، فماذا اشترط الفارابي من مؤهلات في رئيس المدينة الفاضلة؟[٢] وماذا تمثل هذه المؤهلات بالنسبة لسلطة الرئيس؟ وهل تعكس مدى تحكم الثقافة في السلطة؟

أ- المؤهلات العقلية:

يقول الفارابي: «إن رئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أي إنسان اتفق، لأن

(١) مصطفى النشار - مرجع سابق - ص:١٧٤.
(٢) المرجع نفسه - ص:١٧٥.

الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما، أن يكون بالفطرة والطبع معدّا لها، والثاني بالهيئة والملكة والإرادة، وبالإضافة إلى ذلك لا يصلح لرئاسة المدينة الفاضلة إلا من بلغ عقله المنفعل وبلغت قوته المتخيلة أقصى درجات الكمال. وبلوغ العقل المنفعل أقصى درجات الكمال يكون بامتزاجه بالعقل الفعال امتزاجا يجعله يستحيل إلى عقل ويفيض عليه بالمعقولات كلها فيصبح بذلك حاكما متعقلا على التمام، وبلوغ قوته المتخيلة أقصى درجات الكمال يكون بتذكرها المعقولات والمثل التي سبق أن أدركتها النفس في عالمها الأول قبل أن تتصل بالأجسام تذكرا يفيض عليها به العقل الفعال عن طريق الإشراق فيكشف بذلك الحجاب عن صاحبها ويصبح في مرتبة الأنبياء المصطفين[١].

ب- المؤهلات الروحية:

يستكمل الفارابي مؤهلا آخرا تابعا للأول بقوله: «وإذ حدث ما سبق من قدرة رئيس المدينة بعقله المنفعل أن يستكمل كل المعقولات حتى لا يكون يخفى عليه شيء منها وصار عقلا بالفعل، كان هذا الإنسان هو الذي يوحى إليه بتوسط العقل الفعال، فيكون ما يفيض من الله -تبارك وتعالى- إلى العقل الفعال، يفيضه عقله الفعال إلى عقله المنفعل بتوسط العقل المستفاد، ثم إلى قوته المتخيلة، فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا، ومتعقلا على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيلة نبيا منذرا بما سيكون... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة، وتكون نفسه كاملة بالعقل الفعال»[٢].

ومن هذه المؤهلات العقلية والروحية التي يريد الفارابي أن تتوافر في الحاكم، يتضح لنا أنه يعرّف الحاكم بأنه القادر على الاتصال بالعقل الفعال (سواء بالعقل أو المخيلة)، المطلق السلطة في التصرف في أمور الدولة بحسب علمه ولا يجب أن يحد من سلطته شخص أو قانون، لأنه مصدر كل التشريع وعلى الناس أن تستمد منه العلم والمعرفة[٣].

---

(١) الفارابي - آراء أهل المدينة الفاضلة - ص:١٢٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) مصطفى النشار - مرجع سابق - ص:١٧٦.

وعندما يستعمل هذا الحاكم قوته المتخيلة بالاتصال بالعقل الفعال يصبح نبيا يتنبأ عارفا بما سيقع في المستقبل وما قد حدث، أما إن اتصل العقل الفعال بواسطة عقله النظري فإنه يسمى حكيما أو فيلسوفا، فالحاكم الفيلسوف والنبي كلاهما في مستوى واحد، والنظام الذي يتوفر فيه وجود هذا الحاكم هو خير النظم وأفضلها.

وفي نظر الفارابي أن من توفرت فيه هذه المؤهلات يكون هو الرئيس الذي لا يرأسه إنسان آخر أصلا، وهو الإمام، وهو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الأمة الفاضلة، ورئيس المعمورة من الأرض -كلها، لقد أخذ الفارابي بما أخذ به فلاسفة اليونان عامة وأكده أرسطو، من أن المدينة هي أفضل هذه المجتمعات، لكنه لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى فكرة أخرى وهي الدولة الأم أو الدولة الملة، وبذلك يكون قد تجاوز نظرة أرسطو المحدودة بالمدينة اليونانية أي تجاوز النظرة القديمة المحدودة بالأمة. وهذا بدوره دعوة الفارابي إلى العالمية أو الدولة العالم، وربما يكون هنا قد تأثر بالفكر الرواقي الذي ينظر إلى الكون على أنه وحدة واحدة يسودها العقل لأن الكون بأسره جوهر واحد وطبيعة واحدة.[1]

ويضيف الفارابي أنه لا يمكن أن تصير هذه الحال إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنا عشر خصلة قد فُطر عليها، وهذه الصفات الفطرية تنقسم خمسة أقسام؛ قسم منها يتعلق بالجسم، وقسم يتعلق بالعقل، وقسم يتعلق بالقدرة على الإبانة وبلاغة التعبير، وقسم يتعلق بحب التعلم وقسم يتعلق بالأخلاق.

أما ما يتعلق منها بالجسم فهو صفة واحدة:

١- أن يكون تام الأعضاء قويها تواتيه على الأعمال التي شأنها أن تكون بها.

أما ما تعلق منها بالعقل فهي ثلاث صفات:

٢- أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له فيلقاه بفهمه على ما يقصد القائل وعلى حسب الأمر في نفسه.

٣- أن يكون جيد الحفظ لما يراه ولما يسمعه ولما يدركه.

---

(١) عبد الرحمن بدوي - موسوعة الفلسفة - ج٢ - ص:١١٣.

٤- أن يكون جيد الفطنة ذكيات، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دلّ عليها الدليل.

٥- أن يكون حسن العبارة يواتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة.

أما ما يتعلق منها من حب العلم والرغبة في الاستزادة منه فهي صفة واحدة:

٦- أن يكون محبا للعلم والاستفادة، منقادا له، سهل القبول، لا يؤلمه تعب التعلم، ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه.

أما ما يتعلق منها بالأخلاق فهي ست صفات ذكرها في قوله:

٧- أن يكون غير شرِهٍ على المأكول والمشروب والمنكوح، متجنبا بالطبع للعب، مبغضا للذات الكائنة عن هذه.

٨- أن يكون محبا للصدق وأهله مبغضا للكذب وأهله.

٩- أن يكون كبير النفس محبا للكرامة، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها.

١٠- أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده.

١١- أن يكون بالطبع محبا للعدل وأهله مبغضا للجور والظلم وأهلهما.

١٢- أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يُفعل جسورا عليه، غير خائف ولا ضعيف النفس[١].

وهذه الخصال تذكرنا بالصفات التي يضيفها أفلاطون والرواقيون على الحكيم عندما يجعلونه متحليا بجميع الفضائل، كما أن وصف الفارابي للرئيس بالإمام، ربما يشير إلى تأثره بالشيعة، فالشروط والصفات التي يجب أن يتصف بها رئيس المدينة الفاضلة هي بعينها الصفات التي يصف بها الشيعة الإمام[٢].

(١) الفارابي - آراء أهل المدينة الفاضلة - ص:١٣٥.

(٢) مصطفى النشار - مرجع سابق - ص:١٧٨.

ويلاحظ الفارابي أن اجتماع هذه الخصال كلها في شخص واحد أمر عسير أو نادر، ولذلك لا يوجد من فطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد والأقل من الناس، فإن وجد مثل هذا الإنسان كان هو الرئيس الفاضل إذا حصلت فيه الشرائط الست المذكورة بعد وهي شرائط وصفات مكتسبة بالإضافة إلى الاثنتي عشرة صفة الفطرية السابقة، وإن لم يوجد مثله في وقت من الأوقات أخذت الشرائع والسنن التي شرعها هذا الرئيس الأول وأمثاله وعهد بالرياسة إلى الرئيس الثاني الذي يخلف الأول، وهو من اجتمعت فيه صفات هي:

١- أن يكون حكيما.

٢- أن يكون عالما حافظا للشرائع والسنن والسير التي دبّرها الأولون للمدينة، ومحتذيا بأفعاله حذو تلك بتمامها.

٣- أن يكون له جودة استنبط فيما لم يؤثر عن السلف فيه تشريع، فيستنبط محتذيا حذو الأئمة الأولين.

٤- أن يكون له جودة روية وقوة استنباط لما سبيله أن يُعرف من الأمور والحوادث الطارئة، ويكون متحريا فيما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة.

٥- أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين والتي استنبطت بعدهم مما احتذى فيه حذوهم.

٦- أن يكون له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب[١].

وإذا كان الفارابي مقلدا فيما أوجب على الرئيس الأول من صفات وخصال فيمكننا القول إنه كان مبتكرا فيما اشترطه في رئيسه الثاني من شروط تجمع بين الفلسفة والدين.. ويتجلى هذا الابتكار أيضا في فكرة المجلس الرئاسي التي ينادي بها الفارابي عند تعذر وجود إنسان تتوفر فيه هذه الصفات الستة[٢].

---

(١) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة - ص:١٣٥.

(٢) عبد الرحمن مرحبا - من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ط٢ - ١٩٨٣ - ص:٤٦٧.

فالحكمة إذن شرط أساسي لكمال الرياسة والحكيم هو الرئيس على الحقيقة مهما كان الأعضاء الذين يعملون معه، وقد يقودنا هذا إلى القول إن الفارابي جعل الحكمة هي السمة الأساسية التي يجب أن تتوافر في رئيس المدينة الفاضلة، وهذا يتعارض مع من يدعي أنه أقر ما ذهب إليه أفلاطون في جمهوريته، غير أننا إذا نظرنا إلى كل من الفيلسوفين لأدركنا الفرق الواضح بينهما؛ فالفارابي يفصل الحكمة بالاتحاد بالعقل.

خاتمة:

ما يمكن استخلاصه من أفكار نقدية لفكر أحد أقطاب الفلسفة الإسلامية في مجال الفكر السياسي، يمكن إجماله في الآتي:

أولًا: إن السمة الغالبة على فلسفة المعلم الثاني هي السياسة، لكون الآراء السياسية كانت شغل الفارابي الشاغل، فهو لم يدع فرصة تمر دون معالجة السياسة من مختلف نواحيها. وذلك رغم أنه لم يكن ممن تقلبوا في المناصب السياسية أو خالطوا رجال السياسة ليقدم لنا مذهبا ذا قيمة عملية. لقد كان رجل تفكير عميق واطلاع واسع فقد مثل الفارابي نسيجا خاصا به كما يقول الأستاذ مصطفى النشار.

ثانيا: يعد الفارابي كما يقول الأستاذ مرحبا فيلسوف نسيج وحده، تغذى بأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم، فتمثل منهم ما تمثل ولفظ ما لفظ، فاحتفظ بشخصيته وأبقى عليها... لقد غزا هؤلاء كما غزوه ورجع منهم بحصة الأسد. لقد كانوا أدوات مسخرة بين يديه في وقت كانت الفلسفة اليونانية والأفكار اليونانية والعلم اليوناني هي أدوات العصر في كل صناعة عقلية وفي كل إنتاج مرموق. هكذا كان حلم العصر ومنطق العصر. فلا يكون الإنسان مثقفا آنذاك، ولا يحسب في الطليعة والرعيل الأول إلا بقدر ما ينهل من اليونان ويتغذى باليونان ويتفاعل مع اليونان[1].

ثالثا: أراد الفارابي أن يستلهم الفلسفة الإغريقية، ويقرأها على ضوء ما يمليه عليه واقعه الإسلامي لكنه لم يقع على الروح الانتقادية عند أفلاطون، وإنما ظل سجين الروح التعليمية

(١) عبد الرحمن مرحبا - من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية - ص:٤٧٣.

عند المعلم الأول. فبالرغم من أن شارح أرسطو كان ينوي استلهام السياسة الأفلاطونية إلا أنه قرأها بعين المعلم الأول، وظل يعتبر، مثل معلمه، أن الحقيقة انكشاف وأن القوة الناطقة «تتحرى محاكاة ما هو خارج النفس»، كما أنه ظل يعتقد أن اللغة خطاب يوجه إلى البشر، وليست حوارًا وحديثا يصدر عنهم، فالألفاظ في نظره، كما هي عند المعلم الأول، «إنما أحدثت بعد أن عقلت الأشياء»[1].

رابعًا: لقد أخذ الفارابي بما أخذ به فلاسفة اليونان عامة وأكده أرسطو، من أن المدينة هي أفضل هذه المجتمعات، لكنه لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى فكرة أخرى وهي الدولة الأم أو الدولة الملة، وبذلك يكون قد تجاوز نظرة أرسطو المحدودة بالمدينة اليونانية أي تجاوز النظرة القديمة المحدودة بالأمة. وهذا بدوره دعوة الفارابي إلى العالمية أو الدولة العالم، وربما يكون هنا قد تأثر بالفكر الرواقي الذي ينظر إلى الكون على أنه وحدة واحدة يسودها العقل لأن الكون بأسره جوهر واحد وطبيعة واحدة.

خامسًا: هناك فروق واضحة بين «جمهورية أفلاطون» و«مدينة الفارابي الفاضلة»، فجمهورية أفلاطون رئيسها فيلسوف وأما مدينة الفارابي فهو فيلسوف ونبي على اتصال بالعقل الفعال، ولم يجمع الفارابي هنا بين النبوة والفلسفة في شخص رئيس مدينته إلا ليؤكد الوفاق بين النبوة والفلسفة وبالتالي بين الحكمة والشريعة، ومن أوجه الخلاف بين أفلاطون والفارابي في هذه المسألة أيضا أن أفلاطون يقول بشيوعية الملكية والنساء والأولاد في محاورة الجمهورية أما الفارابي فيتجاهل هذا الرأي تماما لأنه يتعارض مع تعاليم الإسلام. ثم إن الرئيس واحد عند أفلاطون، وأما الفارابي فيقول بمجلس رئاسي عند تعذر وجود الرئيس الواحد مما يوضح مرونة الفارابي.

سادسًا: لقد عجزت ظروف اللحظة التاريخية التي عاشها الفارابي أن تسمح لذلك التوتر الذي أخذ يسود المدينة الإسلامية أن ينعكس على مستوى الوعي الفلسفي بحيث يتمكن الفكر من أن ينكب على التجربة الاجتماعية ليكشف عما يمكن أن تتمخض عنه. لذا، ظل المعلم الثاني سجين الزمنية القدسية، فلم يكن الإنسان عنده مواطنا إلا

(١) عبد السلام بنعبد العالي - الفلسفة السياسية عند الفارابي - دار الطليعة بيروت - ط٢ - ١٩٨١ - ص:١٣٧.

بمقدار ما كان مواطن مدينة الله. ولم تكن عنده من فلسفة سياسية إلا بمقدار ما كان عنده من فلسفة.

سابعًا: امتداد هذا الفكر الفارابي إلى غيره من فلاسفة الإسلام حيث نجد عند ابن سينا أن موضوع الفلسفة «السياسية» يظل، عند الشيخ الرئيس أيضا، هو معرفة وجود النبوة وحاجة الإنسان إلى الشريعة. ولسنا نبتعد كثيرا عن هذه الروح عندما ننتقل إلى الفلسفة في المغرب، فنحن نجد عند ابن باجه، «العلم الثاني في تاريخ الفلسفة السياسية التي وضع أسسها الفارابي» أن الغاية القصوى التي يهدف إليها (المتوحد) في المدينة الفاضلة «إن هي إلا (الاتصال) بالعقل الفعال، ومن وراء ذلك اللحاق بعالم المفارقات الذي ذهب كل من الفارابي وابن باجة إلى أنه كنه السعادة التي كتب عليه أن يتطلع إليها دائما». فكذلك الشأن في الفكر الشيعي أو الأشعري، فإمام الشيعة ما هو إلا مكملا لرسالة النبي، بل إن هذا الإمام، عند بعض فرق الشيعة، أقرب إلى الألوهية منه إلى البشر، لذا كان في نظرهم أحق بتلك الخلافة، وأجدر الناس بخلق صلة الوصل بين الإنسان وخالقه، وليست مهمة الإمام في الفكر الأشعري مغايرة، في روحها، لمهاته: فوظيفة الإمام عند الماوردي هي أن يخلف النبي في «حراسة الدين وسياسة الدنيا»، وهي عند الغزالي شرط أساسي لتحقيق الدين في الدنيا إذ «لا يحصل نظام الدين إلا بإمام مطاع».